الذين لا يقتون الا بالدجاجلة اذا مررنا بالاغمار الذين يجتمعون في ارصفة الازبكية لضرب الرمل واستنطاق الحصى فلا يسخر أحد من بسطائنا وجهلائنا فان لهم في الامم الاوربية اقتالا وامثالا من البسطاء « وكلنا في الهوى سوا »

اهـ ما اخترناه من الجزء الثالث

تبصرة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ في بيان ان سعادة الامة في التهذيب ﴾

تلك آيات من الحكمة ، تتلى على مجتمع هذه الامة ، تنبه فكر الناسي ، وتبعث همة الآسي ، وشذرات من معدن العلم السماوي ، تهدي الى معمل الفكر الانساني ، ليصوغ منها عقوداً ، ويضرب منها نقوداً ، تحلى بها اجياد العقائل العواطل ، وتعامل بها أكف المثري والعائل . لعلهم يفلحون ،

اذا تأملت في تاريخ هذا الانسان رأيت ابناءه قد وقع منهم الاختلاف في كل شيء « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك » اختلفوا في العقائد والمذاهب ، والعادات والمشارب ، وجرى هذا الخلاف منهم في مدركات الحس ، كما سرى في مدارك العقل ، ألا ترى ان بعضهم لا يستطيب أكل اللحوم ذوقاً ، كما ان بعضهم يستقبحها عقلاً ، اما سمعت ان منهم من انكر مظاهر الوجود وحقائق الاشياء زعماً انها خيالات وأوهام تتراءى للحواس ولا تحقق لها في نفسها . ومن رام حصر مواد الاختلاف والافتراق

بين الامم والشعوب . وبين الآحاد والاشخاص فقد رام عبثاً وحاول شططاً وفيما أشرنا اليه من النموذج بلاغ لقوم يفقهون

ان أصالة الخلاف والمنابذة وتمكنهما من نفوس افراد هذا النوع قد جعلته من الخواص اللازمة أو الفصول المقوّمة لذاته والمقسمة لجنسه بحيث يصح ان يعرف الانسان بانه (حيوان مخالف) أفلا يجدر بنا ان نعجب بعد هذا اذا رأينا جميع الناس أو أمة منهم قد اتفقوا على شيء وأجمعوا على شأن ؟ ألا يجب علينا ان نتتبع ذلك الشيء فنتخذه ذريعة لجمع كلمتهم واتفاق وجهتهم الذي لا قوام لحياتهم على الوجه الذي ينبغي الا به؟ بلى ولكن انى لنا الظفر بهذه الرغبة المفقودة ، والاهتداء لهاته الضالة المنشودة ، وكيف لنا ان نطمع بما يكاد يخرج به الانسان عن كونه الخاص به فلا يكون انساناً ؟ ولعل قائلا يقول انا لا نرتاب في ان الاختلاف المطلق لا ينفك عن البشر لكن ذلك لا ينافي الاتفاق على بعض الشؤون فهل تعلم لنا شيئاً لا نخالف فيه ولا تنازع وهو مما يقصد بالعمل ويتوصل اليه بالسعي لنجعله معقداً للارتباط اذا أخذنا في الدعوة الى الاجتماع على أصول العلم الصحيح ؟ والجواب نعم ان هؤلاء الناس مهما تباينوا في الوسائل واختلفوا في المقاصد فهم متفقون على شيء واحد يصح ان يكون علة غائية لكل حركة وسكون يصدران منهم الا وهو التخلص من البؤس والشقاء والظفر بهناء العيش ونعمة البال عاجلاً أو آجلاً وان شئت قلت هو دفع المؤلم واجتلاب الملائم إما لنفس العامل فقط وإما له ولمن يشاركه في المنزل أو الوطنية أو الجنسية . وما نشاهده من سعي الكثير منهم الى ما يسلمهم للهلكة ويتجافى بهم عن مضاجع

الراحة والهناء فانما هو لاخطاء النهج وضلال الطريق القصد

يظهر هذا في سيرة المحكوم والحاكم، والجاهل والعالم، والتاجر والصانع، والحارس والزارع، والمنفق والممسك، والحليم والسفيه، والشجاع والجبان، والعفيف والشره، كل يسعى لما يرى ان فيه راحته ونعيمه. لكن ربما خفي على البعض في نحو الجاني والمنتحر ويظن ان الجاني على غيره بما يعود على ذاته بالضرر أو التلف والمتعمد ازهاق روحه بيده لا يقصدان بعملهما ما ذكر والحق ان عملهما هذا ليس الا تخلصاً من بلاء أو توصلاً الى نعماء بحسب ماوصل اليه الاجتهاد. فالانسان حريص كل الحرص على تحصيل العيشة الراضية والحياة الطيبة وكل سعي افراده انما هو في هذه السبيل. وكما يطرد هذا في سعي طالبي الحياة الدنيا يطرد أيضاً في سعي مريدي الآخرة فالصائم والقائم، والزاهد والعابد انما يقصدون السعادة الابدية (٦٩ : ٢١ في عيشة راضية ٢٣:٢٢ في جنة عالية. قطوفها دانية ٩ : ٧٢ ورضوان من الله أكبر)

فقد تبين ان الناس متفقون مبدأ وغاية (في الجملة) وانما وقع الاختلاف بينهم في الافكار والاعمال (غالباً) من الخطأ في تصور الغاية بتصور ما ليس بسعادة سعادة الذي يتبعه الخطأ في اختيار المبدأ الذي يستند اليه العمل — كأن يتصور ان سعادته في تحصيل الثروة بأية وسيلة ومن أي طريق ويختار المبدأ لاكتساب المال السرقة وأمثالها —. وقد يكون تصور الغاية صحيحاً ويقع الخطأ في اختيار المبدأ فيختل العمل المترتب عليه — كأن يتصور ان السعادة في كسب المال من الطرق الشريفة في الوجوه المشروعة ويرى ان المبدأ لذلك صناعة الكيمياء (الكاذبة) بتحويل المعادن الى ذهب —

كما يجوز ان يعرقل العمل مع صحة المبدأ والغاية لعدم السلوك اليه من طريقه والمسئول عليه من بابه — كأن يختار التجارة مبدأ للكسب ويتهجم على العمل بغير علم باساليبها ولا اختبار أو لعدم توفر دواعي النجاح من الخارج أي من الامور التي لا تنالها يد الكاسب — كأن يختار التجارة أو الزراعة ويأتي بجميع اسبابها مستوفياً شروطها فتنزل بالزرع جائحة أو تذهب بالتجارة الانواء ويحطم السفين اعتلاج الامواج —

فعلينا ان نبحث في الطريق الموصل الى صحة الغاية ومبادئها وانتظام أمر العمل بحيث ينطبق على المبدأ ويؤدي الى الغاية من غير خطأ ولا ضلال، وبالنتيجة في انتظام أمر المعاش والمعاد بما تصل اليه يد الامكان ويدخل في اختيار الانسان . وهو اشرف الابحاث وأفضلها لا ينطق لسان ولا يجري يراع بأفضل من الكلام فيه . ولا غرو فان البحث فيما يوصل الانسان الى الراحة والهناء في الدنيا والمثوبة الحسنة في العقبى لهو أجل ما يتحدث فيه المتحدثون، ويتنافس فيه المتنافسون، فألق اليه السمع وأنت شهيد

أنت تعلم ان قوام الدنيا والدين بالعمل . والعمل لا يكون الا عن علم فالاحرى ان نقول بالعلم والعمل «وكلكم حارث - كاسب وعامل - وكلكم همام» يهم بالامر فيفعله — لكن الهم مختلف والكسب مختلف « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » ثم كل من القسمين طبقات فمنهم السائد والمسود والقوي والضعيف والغني والفقير الى غير ذلك من الطبقات المتقابلة . ولا سبيل الى المساواة بين الناس بجعلهم في رتبة واحدة كما ينزع اليه بعض الملاحدة في هذا العصر لان مبدع العالم تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق وغيره كما اقتضته حكمته في طبيعة الكون وجرت به

سنته « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وانما السبيل الذي نقصده والطريق الذي توخينا البحث عنه هو الذي اذا سلكه العالم الانساني على اختلاف الطبقات وتنوع المراتب فاز بالعيشة الراضية والحياة الطيبة ألا وهو تهذيب الاخلاق وكماله لا يكون الا بالاستناد الى الدين المبين

التهذيب روح للوجود الطبيعي والمدني والسياسي تنال به هذه الوجودات سعادة الحياة وحياة السعادة شهد بذلك التاريخ الصحيح وصدقه العقل السليم . لا راحة لفرد من الاشخاص في نفسه الا بتهذيب اخلاقه في نفسه ولا في منزله الا بتهذيب أهل المنزل وعلى هذا النحو أهل المدينة والمملكة العظيمة . فكما ان التهذيب الشخصي هو مدار انتظام معيشة الشخص الواحد كذلك التهذيب العمومي هو مدار انتظام معيشة الامة كلها اذ ليس المهذب الا من يقوم بحقوق نفسه وحقوق غيره على صراط العدل المستقيم

واذا كان انتظام أمر الحياة معلولا لتهذيب الاخلاق فبالضرورة يكون وجوده بوجود علته وعدمه لعدمها اذ لا معنى لكونه معلولا الا هذا . ومن هنا نفهم السر في اختلال معيشة الافراد وانتظامها . وانفصام عرى الاتحاد بين الجماعات والتئامها . وصعود بعض الامم أعلى درج الارتقاء وهبوط بعضها الى أسفل درك الانحطاط . ووقوف البعض بين بين . تتنازعه عوامل العلتين . حتى يأتي أمر الله . واعتبر ذلك في سير الانسان من يوم علم تاريخه الى الآن . تلقه صحيحاً مطرداً

ربما خفي على البعض الارتباط بين الاخلاق والاعمال فلم يسلم بان

حسنها الحسن وقبحها القبح مع تسليمه بان سعادة الدارين انما هي بالاعمال وهذا الخفاء لا يكون الا عن الجهل بمعنى لفظ الاخلاق وما هو المراد منه فاذا فهم ما هو المعنى منه انجلى له ذلك الارتباط كالشمس ليس دونها سحاب

الاخلاق جمع خلق (بالضم) وهو صفة النفس كما ان الخلق (بالفتح) صفة الجسد وقد عرفه علماء التهذيب بانه هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بسهولة من غير حاجة الى روية ولا تفكر، وبيان ذلك ان مما يناجي الانسان به وجدانه ويوحي اليه احساسه انه لا يصدر عنه عمل اختياري فعلا كان أو تركا الا عن داعية من النفس وان جميع جوارحه مسخرة لخدمة سلطان الروح وان ارادة هذا السلطان التي لا ترد مهما جاءت بالجزم انما ينفذها الى الجوارح بريد الفكر والخيال . واذا دقق النظر رأى ان جميع ارادات السلطنة الروحية تصدر عن داعيتين الاولى انفعال وتأثر كالجوع يدعو الى الاكل ومحلها الطبع والثانية ادراك وتصور كتصور خطر المرض يدعو الى تناول الدواء ومستندها العقل وهاتان الداعيتان آلتان لتحريك الاعضاء للعمل والآلة لا تتحرك بنفسها واليد المحركة لهاتين الآلتين خلق حسن أو خلق سيء اذ لا تخلو الداعية للعمل من مصاحبة أحد أمرين اما الجور بتفريط أو افراط كالاكل زيادة عن الشبع شرها وجشعا أو ترك الشبع وما يناسب المزاج من الطعام حرصا وبخلا وكالامتناع عن شرب الدواء عند الاحتياج استبشاعا لطعمه أو تناوله مع الاستغناء عنه وسوسة ووهما . وإما العدل باعضاء ما فيه المصلحة مع التجافي عن طرفي الافراط والتفريط . والجور والعدل جنسان لانواع الاخلاق الفاضلة والذميمة فاذا أصيب ملك الروح برزيئة

الجور فامر بما لا ينبغي ونهى عما ينبغي ورعية الجوارح لا مندوحة لها عن طاعته لا تلبث مملكة البدن ان يسرع اليها الفساد ويحل بها الدمار. وهذا واضح في مملكة البدن كما هو واضح في المملكة الظاهرية بل هو في مملكة البدن أشد وضوحاً وظهوراً. واما اذا تحلى بفضيلة العدل فيستقيم ولا ريب نظام المملكة وتبلغ من الانتظام غاية الكمال

من فهم ما قلناه من ان جميع الاعمال انما تصدر بارادة الروح عن داعيتين وان الروح في ذلك لا تخلو عن العدل أو الجور وعلم مع ذلك ان العدل هو غاية تهذيب الاخلاق بل هو المحور الذي تدور عليه سيارات الفضائل وان الجور ضده فهم وجه الارتباط بين الاخلاق والاعمال وأذعن لتفاوتها بحسب اضعة وخسة ورفعة وشمما واذا لاحظ بعد هذا ماقلناه أولا من ان الحصول على رغائب الدنيا والآخرة موقوف على العمل لا على الاماني والتشهي انكشف له مقدار تأثير الاخلاق في المجتمع الانساني صلاحاً وفساداً

كيف لا يكون الخلق المهذب أفضل الفضائل وغاية الكمال وهو ثمرة الاديان السماوية والشرائع الالهية بدليل قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » وقد علمت انه ثمرة العقل السليم أيضاً. ثم أكثر آيات القرآن الكريم جاءت في الحث على مكارم الاخلاق (كالعدل والقسط في الامور كلها والبر والاحسان لجميع الناس والصبر والحلم والحياء والرفق والرحمة والوفاء والصدق والتواضع والعفو والامانة وأمثالها) وينهى ويحذر من سفسافها (كالجور والجزع والغلظة والبخل والجبن والكبر والرياء والكذب والنفاق والخيانة والوقاحة والسفه

واشباهها) وفي حكاية أحوال المهذبين مع الثناء عليهم للاقتداء بهم وحكاية أحوال فاسدي الاخلاق في معرض الذم والتقريع للاعتبار والتنفير كما في قصص الانبياء عليهم السلام مع أممهم . وحسبك مع هذا قول عائشة (رضي الله تعالى عنها) في قوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلقه القرآن . وقد ورد في ذلك من الاحاديث النبوية مالا يكاد يحصى فدونك حاصل بعضها . وهو ان أفضل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً . وان الخلق الحسن خير ما منح الله تعالى به العبد . وان أحب الناس الى النبي وأقربهم منه مجلساً احاسنهم اخلاقاً . وان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة (انظروا وتاملوا) وانه يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد . وان العبد ينال بحسن خلقه الدرجات العلى مع ضعفه في العبادة . وان سوء الخلق يقذفه في أسفل درك جهنم . وانه يفسد العمل كما يفسد الخل العسل . وان الله تعالى قوى الايمان بحسن الخلق وقوى الكفر بسوء الخلق . وابلغ من ذلك ماروي ان سائلا جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بين يديه وسأله ماهو الدين فقال حسن الخلق ثم جاءه عن يمينه ثم عن شماله ثم من وراء ظهره وسأله هذا السؤال واجابه بهذا الجواب ويقرب منه ماروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه قال لكل بنيان اساس واساس الاسلام حسن الخلق

فاذا تبين ان خلق الانسان هو دعامة سعادته وعمادها، وعليه مدار صلاح أموره الدينية والدنيوية وفسادها، فيجب على كل فرد من افراد الامة ان يوجه قواه العقلية والمالية للحصول على هذه المنقبة الكبرى، والسعادة العظمى، وعلى العلماء ان ينبهوا الاغنياء ويقتدوا معهم الجمعيات

للقيام بهذا العمل الجليل ولا عذر في التهاون والوني تلقاء هذا المقصد الشريف الا لمن تخبطه شيطان الجهل فأمسى لا يميز الكمال من النقص، ولا يزيل بين السعادة والشقاء . وكفاه عذره ذنباً . وأما من كان صحيح الفكر وتلا أو تلي عليه ماذكرناه ثم لم يعره اذناً صاغية، ولا نفساً واعية، رغبة في جمع الحطام، والتلذذ بالشراب والطعام ، واشتغالا بمفاخرة الاقران، وقهر الاخصام ، فلتهنأ له الحياة الحيوانية « في ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب » . والسلام على الانسانية وذويها، والفضيلة ومحبيها في كل زمان ومكان

سؤال وجواب

كتب الينا غير واحد يسألنا عما جاء في مقالة (القول الفصل) المدرجة في العدد الثاني من جريدتنا من تخطئة الذين يستعينون بالاموات من العلماء والصلحاء على قضاء المصالح واجتناء المنافع وقولنا في هذا البحث « ويستنهضون هممهم بالصياح والصراخ وتقديم هدايا الفواتح » هل يتضمن هذا القول انكار كرامات الاولياء أو يلحق بهم شيئاً من الغضاضة وهل فيه انكار لقراءة الفاتحة أو غيرها من القرآن للاموات

والجواب

معاذ الله ان نرمي بكلامنا الى غمط حقوق أولياء الله تعالى أو ننكر ما أكرمهم الله تعالى به من فضله . وليس كلامنا ذلك في هذا الموضوع وانما هو بحث في الاسباب التي بها أناط الله تعالى أمور الكون ولا شك ان الاستعانة بالاموات على قضاء الحوائج ليس من الاسباب التي